الخطر الصليبي الأسباني على الدولة الجزائرية ودور العثمانيين في التصدي له.

د/ عبد الوهاب شلالي - جامعة تبسة -

Résumé.

L'Algérie avait subit, après la chute de Grenade durant la fin du 15ème siècle, et le refuge des musulmans Andalous en Afrique du nord, pour échapper au calvaire des tribunaux d'inquisition qu'avait mis pour eux l'église intolérante espagnole, de grandes expéditions que les rois d'Espagne n'avaient cessé d'envoyer contre elle, durant trois siècles.

Durant lesquelles, ils ont occupé ses principales villes côtières, et avaient imposé leurs volonté à ses gouverneurs, ainsi qu'aux princes divisés de Tlemcen.

L'apparition des deux frères Urudj et Khair-Eddine, fils de Yakub sur la scène des événements, et les victoires qu'ils ont réalisé sur les envahisseurs espagnols et leurs alliés européens en Tunisie, Jijel, Mostaganem, Ténès, et Dellys, avait poussé les notables de la ville d'Alger a faire appel a leurs secours pour se débarrasser du traité humiliant que leurs avait imposé le roi Ferdinand d'Espagne.

Alors ils se sont entraidés, pour faire face au danger de leur ennemi commun. Après qu'Urudj et son petit frère Ishak tombaient en martyrs en 1518, en défendant l'Algérie, Khair-Eddine continua son action jihadiste. Mais devant la permanence du danger espagnol, et la faiblesse de ces moyens militaires, il s'était mis d'accord avec les habitants d'Alger pour se soumettre au Sultan Ottoman, pour bénéficier de son appuis militaire. Aussi les villes d'Alger, Béjaia, Ténès et Mostaganem au Sultanat, se sont joignaient volontairement au Sultanat en 1519, et se sont devenu une régence ottomane, gouverné par des Pacha, désigné par la sublime porte. Ainsi elle est devenue forte, et possédait une forte armée de terre, et une puissante flotte navale, qui l'avaient permis de faire face au danger espagnole, et libérer les villes côtières de son emprise.

مقدمة

لاشك في أن الدولة الجزائرية الحديثة، واجهت أثناء تأسيسها خلال القرن 16م، تحديات كبيرة على جميع الأصعدة، كان أخطرها التحرش الأسباني المتشبع بالنزعة الصليبية الحاقدة على الإسلام وأهله، والمتأثر بالحروب الأسبانية على مسلمي الأندلس، والمدفوع من الكنيسة الكاثوليكية.

فبعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس في سنة 1492، فر عشرات الآلاف من الأندلسيين بدينهم وأرواحهم من جحيم محاكم التفتيش، وسياسة التنصير القهرية، إلى شمال إفريقيا، واحتموا بإخوانهم المغاربة. غير أن الكنيسة الأسبانية لم تتوقف عند حد التنكيل والتعذيب والتقتيل، بل لجأت إلى اختلاق قصة " خطر المسلمين الأندلسيين الفارين على اسبانيا إذا ما تركوا وشأنهم في بلاد المغرب العربي، وإمكانية إعادة بناء قوتهم هناك، ومن ثم العودة إلى اسبانيا ثانية واسترجاع ملكهم الضائع."

ولذلك حرَضت حكام أسبانيا على ملاحقة المسلمين الأندلسيين، والقضاء عليهم، والاستيلاء على البلاد التي لجئوا إليها كي لا تقوم لهم قائمة أبدا. وقد انجر عن هذا التعصب الديني المقيت ما اصطلح عليه باسم: " حروب الاسترداد" أو " الروكنكيستا".

فاتخذ ملوك أسبانيا المتعصبين هذه الذريعة وسيلة لغزو سواحل دويلات المغرب الإسلامي الضعيفة، بما في ذلك سواحل إمارة بنو زيان، واحتلال مواقع فيها، وإخضاع حكامها لإرادتهم. محققين بذلك مشروعهم الاستعماري التوسعي.

غير أنهم لم يضعوا في الحسبان إمكانية ظهور قوّة إسلامية من خارج حدود المنطقة، قادرة على الوقوف في وجههم الند بالند، وقلب موازين القوّة لغير صالحهم، والحيلولة دون تحقيق مخططهم.

ولهذا اخترنا في هذه الورقات البحثية، معالجة موضوع موسوم: "**الخطر الصليبي الأسباني على الدولة الجزائرية ودور العثمانيين في التصدي له**"، وسعينا في دراسته انطلاقا من الإشكالية التالية: أين كانت تكمن مخاطر التهجم الصليبي الأسباني على الجزائر وكيف تم التصدي له ؟

كما طرحنا أيضا مجموعة من التساؤلات الفرعية، نراها مهمة في تغطية مختلف جوانب موضوع البحث. نذكر منها: ما هي مبررات الغزو ؟ ما هو دور الكنيسة الكاثوليكية في التحريض على الغزو ؟ كيف تصدى سكان المغرب الأوسط للخطر الصليبي الإسباني ؟ ما هي انعكاساته ونتائجه على السلطة القائمة آنئذ ؟ كيف ساهم العثمانيون في مواجهته ؟ إلى أي مدى نجحوا في درأ خطرها؟

بماذا نفسّر الروح الجهادية العالية التي أبدوها في مقارعة العدو الأسباني؟ هل من علاقة بين ظهور الخطر الأسباني وإلحاق الجزائر بالخلافة العثمانية؟

لقد حاولنا الإجابة من خلال هذا المقال، على الإشكالية الرئيسة وبقية التساؤلات المطروحة، معتمدين في ذلك على مصادر ومراجع عربية وأجنبية، وعلى روايات وشهادات بعض الساسة ورجال الدين الأسبان المنشورة. وسعينا إلى تسليط الضوء على خطر الغزو الصليبي الأسباني على إيالة الجزائرية الفتية في القرن السادس عشر، والحملات العسكرية المتعدّدة التي جُرّدت ضدها، وإبراز دور حكامها العثمانيين في مواجهتها وإحباط مخطّطاتها، وبحث الإستراتيجية التي اتبعوها في دعم الجهاد البحري، ومواجهة الخطر الصليبي على العالم الإسلامي، وإنهاء الاستعمار الأسباني في بلادنا.

هذا وقد جعلت هذه الدراسة في ثلاثة مباحث: مبحث أول بعنوان: لمحة تاريخية عن أوضاع المغرب الأوسط في أواخر القرن 15 م. ومبحث ثاني بعنوان: التحرش الاسباني بالجزائر ودور الكنيسة الاسبانية في إذكاء التعصب الصليبي ضد المسلمين. ثم مبحث ثالث وأخير موسوم: رد فعل حكام الجزائر العثمانيين ودورهم في حماية البلاد.

المبحث الأول: لمحة تاريخية عن أوضاع المغرب الأوسط في أواخر القرن 15م.

عرفت الدولة الزيانية منذ النصف الثاني من القرن 15 م، خلافات حادة وتنافس شديد على السلطة بين أبناء الأسرة الحاكمة، وبحث كل طرف عن حليف له يساعده على الجلوس على العرش مقابل الخضوع له. فاستعان البعض بالبلاط الملكي في فاس، بينما استعان آخرون بالسلطة الأسبانية في الساحل. وقد سقط المرسى الكبير ووهران في عهد حكم الأمير أبي عبد الله، الذي اعتلى العرش في عام 1550، وواجه معارضة من أخويه أبو زيان، الذي أودع السجن، ويحيى الذي فر إلى فاس بعدما فشل في الإطاحة بأخيه[1].

واستمرت المعارضة في عهد ابنه أبو حمو، خاصة بعدما تعاون مع الأسبان لتوطيد ملكه، وقبل بدفع إتاوة سنوية لهم، قدرت ب: 12 ألف مسكوكة ذهبية، و12 جواد، و6 من إناث طير السنقر كرمز للخضوع[2]. حيث طرده حلفاء عمه المسجون بالتعاون مع سكان تلمسان، ونادوا بأبي زيان أميرا عليهم. فاستنجد هذا الأخير بالبحار الشهير عروج بن يعقوب حاكم مدينة الجزائر، في مواجهة القوات الأسبانية التي نزلت في أواخر عام 1517، بجزيرة رشقون لإعادة الأمير المخلوع إلى سدة الحكم.

وكثيرا ما كان أمراء بنو زيان يستعينون بالحكام الأسبان في مدينة وهران المحتلة ضد إخوتهم، وأبناء عمومتهم المتحالفين مع العثمانيين، للجلوس على كرسي السلطة في تلمسان. وفي كثير من المرات دارت مواجهات بين الفريقين، انتصر فيها الفريق المتحالف مع العثمانيين، بالرغم من تفوق الخصم الآخر في العدة والعتاد. ففي سنة 1542، استعان محمد السادس الزياني، بحاكم وهران الكونت ألكوديت، لاسترجاع عرشه من أخيه أحمد الثالث حليف العثمانيين. وبالرغم من تفاوت في عدد قوات الخصمين، حيث كانت القوة الإسبانية تتألف من 12 ألف جندي أسباني، تدعمه بعض القبائل الجزائرية الموالية للأمير المخلوع، في مقابل أربع مائة مجاهد من العثمانيين، و8 آلاف من حلفائهم من قبائل المنطقة، إلا أن الغلبة كانت للفريق الثاني[3].

وبالنسبة للقسم الشرقي من بلادنا، فقد ذكر الحاج المبارك صاحب كتاب " تاريخ قسنطينة"، أن في الفترة التي استقر فيها الأتراك العثمانيون في مدينة الجزائر، وبروزا أثناءها كقوّة في حوض البحر المتوسط، كانت قسنطينة تتبع الحفصيين، الذين كانت سلطة أمرائهم تتقلص يوما بعد يوم، واضطروا إلى التحالف مع المسيحيين الأسبان لإدارة مملكة بني مروان. بينما كان الحماديون في بجاية في انحطاط مستمر. وقد استغلت القبائل البدوية ذلك الوضع لنشر الفوضى في البلاد، والتصرف كأسياد في منطقة قسنطينة[4].

ويجمع المؤرخون عموما على أن أهم أسباب سقوط دويلة بني زيان، في بداية القرن 16 م، هو التمزق السياسي الذي أصاب المجتمع برمّته. ويؤكد بعضهم على ضعف السلطة المركزية، وانقسام الإمارة إلى مشيخات شبه مستقلة، مما زاد من سطو القبائل وتناحرها فيما بينها. فتعطلت بذلك التجارة، وسادت المنطقة حالة فوضى لم تخرج منها حتى فاجأها الغزو الأسباني المسيحي.

فبعد النكبة الكبيرة التي أصابت المسلمين في أواخر القرن 15 ومطلع القرن 16م، إثر سقوط غرناطة، بدأ التصدع يظهر جليا في جسم الإمارة الزيانية، وأصاب التفكك عمق تكوينها السياسي والاجتماعي. فقد وصف أحد الكتاب الغربيين الاختلافات السياسية، والتناحر على السلطة بين أبناء الأسرة الحاكمة بالقول: « كان يطاح بالأمراء من قبل الأبناء، ثم يتنافس هؤلاء عرش آبائهم[5]».

ففي ظل التسلط الصوري لأمراء تلمسان، برزت مشيخات وإمارات مستقلة، مثل إمارة كوكو في بلاد القبائل، وإمارة آل مقران أحفاد بني العباس في مجانة وقسم ممّا يعرف اليوم بالقبائل الصغرى، وإمارة الثعالبة بقيادة أسرة ابن التومي في مدينة الجزائر وإقليم متيجة. بينما شكّلت وهران جمهورية تجارية حقيقية مستقلة. وفي الجنوب الكبير استقلت بعض القبائل العربية بإدارة أقاليم

شاسعة، وتحكمت في الطرق التجارية الرئيسية، مثل قبائل عرب دواودة التي سيطرت على منطقة الزاب والحضنة، وإمارة توقرت التي حكمتها أسرة أولاد جلاب الشريفة[6]، ومشيخة واحات فقيق المرابطية الخاضعة لأحفاد سيدي بوسماحة من أولاد سيدي الشيخ.

وقد ساهم هذا الوضع المتردي في تلاشي الوحدة الوطنية السياسية، وجز بالبلاد في دوامة الفوضى، والفتنة، والانقسامات.« فكل عشيرة تقريبا نصبت من نفسها دويلة، همها التطاحن مع جارتها، التي لا تقل عنها سخفا ولا إسفافا ! انحلال وتحلل، وتفرق وتمزق... وانتشار واندثار طوال قرن كامل، من بداية القرن الخامس عشر إلى بداية السادس عشر، وكان الغزو الأسباني.[7]».

وعرفت البلاد على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي: « تقهقرا اقتصاديا واضمحلالا عمرانيا، ارتبط بسوء الحالة الصحية والمعيشية أثناء القرنين 14 و15 م. خربت أثنائها المدن، وأقفرت الأرياف من سكانها.[8]» وبعد سقوط وهران بيد الطاغية الإسباني في سنة 1509، وحرمان حكومة تلمسان من إيرادات مينائها، ضاعفت الضرائب على السكان مما أدى إلى حدوث سخط كبير في أوساطهم[9].

وقد تزامن حال الانحطاط الداخلي للمغرب الأوسط، وضعف تحصيناته في بداية القرن 16 م، مع الهجمة الصليبية الخارجية الحاقدة على الإسلام والمسلمين، والتي شنّها ملوك أسبانيا الكاثوليك على مدنه الساحلية، بدءً باحتلال المرسى الكبير في 23 أكتوبر 1505، والاستيلاء على أسطوله، في إطار سياسة ملاحقة الأندلسيين الفارين من جحيم القتل والتعذيب ومحاكم التفتيش[*]. حيث فرضوا على البلاط الأميري في تلمسان التبعية، والقبول بالأمر الواقع.

وإذا كان العلماء وأهل الحل والعقد في حاضرتي وهران وبجاية، قد فرضوا سياسة الأمر الواقع، ودعوا الناس إلى الجهاد والذود وعن بيضة الإسلام، وشاركوا بأنفسهم في المعركة، فإن أهل مدينة الجزائر وفي مقدمتهم زعيمهم سالم التومي، ومعه أمراء تنس، دلس، شرشال، ومستغانم، فضلوا الخضوع لقائد الحملة الإسبانية بيدرو دي نافارو من دون مقاومة، وقبلوا بدفع إتاوة سنوية للطاغية حقنا لدمائهم.

وقد لخص أعيان مدينة الجزائر، وعلمائها، ومشايخها في أول رسالة رفعوها إلى السلطان سليم الأول، في أوائل ذي القعدة 925 هـــ، الموافق 3 نوفمبر 1519، ما عانوه من تهجمات الأسبان عليهم وسيطرتهم على بلادهم، بما يلي: « لقد جرت حوادث جليلة ولها أخبار طويلة في نصر المؤمنين وهزيمة أعداء الله. ومفادها أن طائفة الطاغية لما استولت على بلاد الأندلس، انتقلوا منها إلى قلعة وهران للاعتداء على سائر البلاد. غير أنه بعد استيلائهم على بجاية وطرابلس

بقيت الجزائر (بين الكفار) كالنقطة في وسط الدائرة، وبقينا لذلك حيارى متأسفين يحفنا الكفار من كل جانب ولكن تمسكنا بحبل الله المتين واتكلنا عليه. غير أن طائفة الطاغية شدّدت علينا الطلب هادفة إدخالنا تحت ذمته (سلطته) وقد نظرنا في الأمر ورأينا أن المحن والشدائد تشتد وأن الضرورة تقضي بحقن دماء أنفسنا وخوفا على حريمنا وأموالنا وأولادنا من السبي والتفريق، تصالحنا مع أهل التثليث وإنا لله وإنا إليه راجعون. وبعد هذه المضايقة والحصار دخل الكفار إلى وهران وبجاية وطرابلس وكان قصدهم أن يأتوا بسفنهم ويستولون علينا ويأسروننا ويشتتون شملنا فجأة.[10]»

فتهجّم الأسبان على بلادنا، وعلى بقية جيراننا كان مدفوعا بطابع استمرارية الحملة الصليبية على الإسلام، والتعصب الديني الكاثوليكي المقيت، الداعي إلى « عدم السماح أساسا بتكوين دولة إسلامية قوية على مشارف حدودها[11].» وهذا ما تؤكّده تصريحات زعمائها السياسيين والدينيين في مطلع القرن 16 م، بالإضافة إلى محاربة نشاط القرصنة الإسلامية، الذي كان يعيق حركتها التجارية، ويمنعها من تحقيق هدفها القاضي بالسيطرة العالمية الاقتصادية، ومواجهة خطر توسع العثمانيين في الضفة الجنوبية للبحر المتوسط، بإقامة سلسلة من الحاميات على الساحل.

المبحث الثاني: التحرش الأسباني بالجزائر ودور الكنيسة الأسبانية في إذكاء التعصب الصليبي ضد المسلمين.

لا شك في أن الصراع الجزائري الأسباني في العصر الحديث، كان صراعا إقليميا بمسحة دينية. سعى من خلاله كل طرف إلى الانتصار لعقيدته وانتمائه الحضاري. ويؤكد الدارسون الغربيون النزعة الصليبية التي كانت تحرك السياسة التوسعية الأسبانية في بلاد المغرب العربي، والحملات الاستعمارية في الجزائر. فقد أشار أحد الكتاب الفرنسيين إلى هذا الأمر عند ترجمته وثيقة أسبانية معاصرة لفترة الاحتلال الأسباني الثاني لوهران في سنة 1738، قائلا: « منذ أكثر من ثلاثة قرون، حاربت (أسبانيا) ببسالة في هذا البلد (الجزائر) من أجل قضية الحضارة المسيحية، ثم بيّنت من خلال ذلك أنها دوما وفيّة للشعار النبيل المنقوش على سيوفها العتيقة: لا تستلني بلا سبب، ولا تغمدني بلا شرف[12].»

فبعد سقوط غرناطة تخلصت أسبانيا من الحروب، التي قادتها ضد مسلمي الأندلس طيلة قرون، واسترجعت قواها، ثم تطلعت إلى نقل ميدان الحرب ضد المسلمين إلى أرض الجزائر وبقية بلدان المغرب الإسلامي، وتحويلها إلى مسرح للحروب الدينية. فقد كانت النزعة التوسعية، والتعصب الديني، وفقا لمبدأ إبعاد

حدود الإسلام عن أوربا، أهم الخصائص التي ميزت توجهات الملوك، ورجال الكنيسة الأسبان، خلال القرنين 15 و16 م.[13]

فقد استغل مطران طليطلة المتعصب فرانسيسكو خيمينيس، هيمنته الروحية على ملكة قشتالة إيزابيل، ليفتك منها قسمًا بالقضاء على المسلمين واليهود ما أن تتولى الحكم، ولا تبقي منهم أحدا في مملكتها. ولما تولت العرش شرعت في سياسة إعدام ونفي الأندلسيين. وقد تم بموجب هذه السياسة محاكمة 100 ألف شخص من قبل الكنيسة بزعامة الراهب المتعصب توركومادا Torquemada، وحرق 6000 مسلم أندلسي خلال أربع سنوات[14]. وقد واصل خلفاؤه من بعده هذه المهمة القذرة، بكل إخلاص وتفان[15]. وفي 26 نوفمبر 1504، كتبت وصية إلى زوجها الملك فيليب وابنتها الأميرة جان، حثتهما فيها على محاربة المسلمين، وغزو بلاد المغرب الإسلامي(*).

وهو السبب الذي اتخذه هذا المطران ذريعة لاستمالة زوجها الملك فرديناند، لاحتلال سواحل المغرب العربي بدء بسواحل الغرب الجزائري. وبالفعل « انطلقت حملة صليبية حقيقية في سنة 1508، لتحقيق غرضين: القضاء على وكر القرصنة التي كانت تغار على بحر أسبانيا، وإنشاء في الوقت عينه طريق إمبريالية من سيفيليا إلى صقلية إلى الغنية بالحبوب، تكون مسنودة إلى السواحل الإفريقية.[16] »

وكان الملك فرديناند يخطط لبسط سلطته على الأقاليم الجزائرية، وغزو أهم النقاط الساحلية واحتلالها، وطرد الأندلسيين منها، ومن ثمة إحلال المسيحيين الأوربيين محلهم، وفرض إتاوة على الحكام والزعماء المحليين. كما كان يتطلع إلى توسيع رقعة مملكته، لدرجة أنه وضع مخططا وهميا للسيطرة على العالم.[17]

كما كان المطران خيمينيس وراء تمويل، وتجهيز كل الحملات التي شنّت خلال النصف الأول من القرن 16 م، على مدن الساحل الغربي الجزائري. فقد ناشد كرم الكنائس الأسبانية، ودعا رجالها إلى جمع المال الكافي لتنفيذ مشروعه الاستعماري. فاستجابت له على الفور، و « اضطر بعض رجال الدين إلى بيع أنية المائدة للمساهمة في المشروع.[18] »

وبذلك، جرّد حملة كبيرة ضد المرسى الكبير في سنة 1505، مهد بها لتنفيذ مشروع غزو شمال المغرب العربي(*).

فأغلب الدراسات والأبحاث التاريخية، التي تناولت تلك المرحلة التاريخية، أجمعت على أن التهجم الأسباني على الجزائر، كان يندرج ضمن إطار الحروب الصليبية، التي أذكى نارها ملوك أسبانيا ورجال كنيستها خلال القرن 16 م، بهدف

محاربة الإسلام فيها، وتنصير أهلها. فقد صرّح أحد الكاتب الاستعماريين بكل وضوح، أن: « المطران خيمينيس سيكون عظيما لدى الأجيال، فقط من خلال تفكيره باقتلاع إفريقيا الشمالية من البربرية الإسلامية ويجعل المسيحية والحضارة تتنصر فيها[19].» ثم تأسّف لعدم تحقيقه ذلك، بالرغم من احتلال معظم الساحل الجزائري. وأعاد أسباب الفشل إلى تصدي الأخوين المجاهدين عروج وخير الدين ابني يعقوب مع حلفائهم الجزائريين، لمخططاته، والعمل على إفشالها.

وذكر كاتب آخر أنه: « لا يجب أن ينسى أن الحملة على وهران تحتفظ دوما بطابع حملة دينية، بنوع من الحرب الصليبية الدائمة[20].» بينما أشار أحد المؤرخين الاستعماريين المهتمين بتاريخ الجزائر، إلى أن الرسالة التي بعث بها الملك فرديناند الخامس إلى سفيره جيرونيمو لدى الملك الفرنسي، غنية بالعبارات الحاقدة على المسلمين[21].

ونجد في وثيقة اسبانية معاصرة للحملة على وهران، إشارة إلى أن السبب من وراء تلك الهجمات على الجزائر هو الأهمية الإستراتيجية لميناء وهران، والمرسى الكبير بالنسبة للبلاط الملكي الاسباني. فميناء وهران اعتبره صاحب الوثيقة، أهم مرسى لتجارة إفريقيا؛ والمرسى الكبير أحسن مرفأ في الساحل الإفريقي قريب من اسبانيا. وأشار إلى أن احتلال القوات المسيحية لهذين الميناءين سيوقف " القرصنة الجزائرية"، وسيمثل قاعدة للعمليات التي سينطلق منها الأسطول البحري الاسباني، والمالطي في عمليات الهجومية على تلك السواحل. كما أنه سيفيد تجار اسبانيا من سعة تجارة وهران المزدهرة آنئذ، بفصل ما كانت تتقله إليها السفن التجارية الأجنبية من بلاد المشرق[22].

أما المؤرخ الفرنسي بروديل، المختص في تاريخ البحر الأبيض المتوسط، فحاول التقليل من الدافع الديني في دراسته للحملات الإسبانية على الجزائر، وسعى إلى إبراز دور البرجوازية التجارية الإسبانية في دعم الحملات التوسعية، وتدخل فئة كبار التجار في السياسة العامة للدولة، وخاصة منهم تجار مدن ملقا، وبرشلونة، وبلنسيا، الذين كانت لهم علاقات وطيدة بالبلاط وبالحاشية الملكية، مكنتهم من النفوذ السياسي، والتدخل في بعض القرارات السياسية، والاقتصادية للمملكة الإسبانية[23].

ولكن برأينا كان التعصب الديني أقوى حافزا وراء كل حملات إسبانيا على الجزائر التي استمرت طيلة ثلاثة قرون. فقد ذكر ملك أسبانيا فيليب الخامس في إحدى رسائله مؤرخة في 6 جوان 1732، عن حملته على وهران، أنه بعدما انتهى من حل مشاكله في أوربا قرّر، إعادة احتلال مدينة وهران، التي: « كانت من قبل هدف الإقدام وورع المسيحية لدى الأمة الإسبانية، واعتبرتُ أن بقاء هذه

المدينة بيد البرابرة الإفريقيين، يظل بابا مغلقا أمام نشر ديني المقدّس وبابًا مفتوحًا لاستعباد سكان السواحل الإسبانية المقابلة لها[24].»

لم يقتصر التعصّب الديني المسيحي على الكنيسة الإسبانية فقط، بل تعدى إلى روما قلب المذهب الكاثوليكي في العالم. فقد أصدر البابا ألكسندر السادس، مرسومين بابويين الأول في سنة 1493، والثاني عام 1494، بارك فيهما الحرب الصليبية على إفريقيا. كما ساعد ملوك إسبانيا نظير هجماتهم على المسلمين، بفرض ضريبة على أتباعه أسماها ضريبة كروزادا أو ضريبة الصليب. وفي عهد حكم الملك فيليب الثاني، فرضت البابوية ضريبة على كل رجال الكنائس الكاثوليكية ضريبة لمساعدة حملات البلاط الملكي الإسباني ضد المسلمين، عرفت باسم: ضريبة سوبسيديو Subsidio[25].

وفي 23 أكتوبر 1505، هاجم دون ديغو فرننديز المرسى الكبير، بعدما زوّده الملك فرديناند الأرجوني بقوات معتبرة، بلغت 5000 مقاتلا حملهم على متن العديد من السفن، رسا بها في غرب المرسى الكبير[26]. وبعد اشتباك أولي، تراجعت قوات الدفاع الجزائرية إلى وهران. ثم سقط الميناء بأيدي الغزاة نتيجة للحصار الذي ضُرب عليه مدّة خمسة أيام، وتأخر وصول النجدة من الداخل. لم يكتف قائد الحملة باحتلال الميناء، بل أرعب قبائل منطقة مسرغين، وهاجم مخيماتهم، واستولى على مواشيهم لتموين عساكره[27].

وفي 18 ماي 1509، احتُلت وهران، في الوقت الذي توحّدت فيه مملكتي أراغون وقشتالة بيد الملك فرديناند الثاني، إثر وفاة صهره الملك فيليب لوبو. وأشرف المطران خيمينيس بنفسه على تنفيذ مخطط الحملة على وهران، واحتلالها وإبادة سكانها. حيث « قام الجند بقتل المدافعين عن المدينة، وقسم من السكان العزل بلا تمييز بين صغير وكبير، وطفل وعجوز[28].» كما قطع فرسان الغزاة، طريق تلمسان أمام المدافعين الجزائريين الفارين من جحيم المعركة. وهكذا ألحقت المدينتين من حيث الإدارة الدينية، بالكنيسة المقدّسة في طليطلة[29].

وتجدر الإشارة هنا، إلى الدور الذي لعبه تاجر يهودي من سكان وهران، يدعى **بن زواوة** في دخول الغزاة الأسبان إلى المدينة ليلا، ومفاجأة المدافعين عنها، وارتكاب مجزرة وحشية في حق سكانها. فقد كانت لهذا اليهودي الخائن، علاقات تجارية واسعة مع الموانئ الإسبانية، وشارك في الحملة بنقل عدد كبير من الجنود الأسبان على متن سفنه من ميناء قرطاجنة في أسبانيا إلى مرفأ وهران. ثم خبأهم في مخازنه، واتفق مع حارسين لأحد أبواب سور المدينة، على

أن يتركا الباب مفتوحا خلال الليل مقابل مبلغا من المال. ولما جنا الليل، تقدم الغزاة مع جنح الظلام، وهاجموا المدينة من تلك البوابة[30].

ومثلما حصل مع المرسى الكبير، تأخر أيضا وصول النجدة إلى سكان وهران المحاصرين. الأمر الذي يكشف عن ضعف حاكم تلمسان، وعجزه عن حماية أقاليمه.

استمر الاحتلال الأسباني الأول لوهران قرنين من الزمن. وفي عام 1708، تمكن باي الغرب مصطفى بوشلاغم من إعادة فتحها، وطرد الغزاة منها، واتخاذها مقرا لحكمه. وفي عام 1732، عاود الطاغية الأسباني غزوها واحتلالها للمرّة ثانية. واستمر تواجده فيها إلى غاية نهاية فيفري 1792. حيث دارت معركة كبيرة بين الطرفين في أواخر عام 1791، واضطر الأسبان إلى توقيع اتفاق مع باشا الجزائر، يخول لهم الانسحاب من وهران، ونقل معداتهم العسكرية، والسكان المسيحيين إلى أسبانيا. وفي مطلع شهر مارس، من ذات العام، دخل الباي محمد بن عثمان، المشهور بمحمد الكبير، مدينة وهران منتصرا، ثم اتخذها عاصمة لبايلكه، وبذلك طويت صفحة الاحتلال الأسباني للمدينة بشكل نهائي[31].

وفي عام 1510، انطلقت من وهران، وحدات الأسطول الأسباني بقيادة ديغو دي نافارو، لاحتلال مدينة بجاية، وانتزاعها من أميرها عبد العزيز الحفصي، المقيم في قسنطينة. كما احتل مدينة الجزائر من دون أية مقاومة. حيث طلب منه أعيانها الأمان، وقبلوا بشرطه القاضي ببناء حصن لصالح العساكر الأسبان عند مدخل مينائها، هو حصن الصخرة[32].

وبدا للوهلة الأولى، أن الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية، الذي تم بسرعة مذهلة، كان سيضمن للمحتلين بقاء أطول في مدينة الجزائر، التي باتت مراقبة بفضل الحاميات والمراكز التي أقاموها على طول السواحل الممتد من مدينة سبتة في الغرب إلى خليج بجاية في الشرق. ولكن ظهور الأخوين عروج وخير الدين ابني يعقوب على ساحة الأحداث، وتعاونهما في مواجهة الغزاة مع سكان تلك السواحل، قلّص من مدّة الاحتلال الأسباني للمغرب الأوسط[33].

وخلال الفترة بين 1516 و1559، قاد ملوك إسبانيا حروبا ضد نشاط البحرية الجزائرية، كلّما تركت لهم الحروب الأوربية الكبرى ما يكفي من الوقت والوسائل. ففي هذه المرحلة تعرضت الجزائر لحملات بحرية خطيرة وعديدة. كانت منها حملة ديغو دي فيرا على مدينة الجزائر في 30 سبتمبر 1516، والتي لقي فيها هزيمة نكراء على يد القائد المغوار عروج بن يعقوب، وكاد أو يلقى

حتفه لولا تمكنه من الفرار والعودة إلى بلاده. حيث: « لعنه الكردينال خيمينيس. ثم سلّمه للجماهير المتعصبّة التي مزّقته شرّ ممزق.[34] »

ثم وقعت حملة هوغو دي مونكادا الفاشلة، في 25 أوت 1518، والتي ظلت عالقة في أذهان الساسة الأسبان ردحا من الزمن. وتلتها حملة أندري دوريا على شرشال في سنة 1530؛ وكذا حملة مرتين دي أنجلو على تلمسان.

وفي 25 أكتوبر 1541، جرّد الملك كرلوس كنت حملة ضد مدينة الجزائر، لينتقم لشرفه من الهزائم السابقة. وقد سخّر لها من الإمكانيات المادية والبشرية، وجمع لها من القادة العسكريين الأسبان والأوربيين البارزين، ما جعلها تعد أكبر حملة صليبية تتعرض لها الجزائر المحروسة منذ قرن. حيث جهز أسطولا ضم 65 سفينة شراعية ذات مجاذيف، و451 سفينة نقل، حملت على متنها 12.300 بحارا، تحت قيادة أندري دوريا. وبلغ عدد قوات الإنزال 25.700 رجل، منهم 6000 ألمانيا، و6000 اسبانيا وصقليا، و5000 إيطاليا، و3000 متطوعا، و1500 فارسا، و200 من حراس الملك، و150 ضابطا من الأرستقراطية الأوربية[35].

ولكن كل تلك القوة لم تجديه نفعا. إذ لحقت به هزيمة نكراء، وتحطمت كل أغلب تلك السفن على شواطئ مدينة الجزائر، وقتل العديد من جنوده عند أبواب أسوارها، وكاد أن يلقى حتفه في العملية. وقد وصف أحد الكتاب الفرنسيين، الحال التي آل إليها كرلوس كنت بعد تلك الهزيمة بالقول: « ملك أسبانيا، هذا الملعون من الله، انسحب إلى بلده تواكبه الحسرات، والندامة والخزي والعار[36].»

والفضل في ذلك، كان أولا لله عز وجل ناصر المؤمنين، ثم لبسالة وجسارة القائد الجزائري حسن آغا، خليفة خير الدين بن يعقوب، والتفاف 1500 جندي إنكشاري، و6000 أندلسي من سكان مدينة الجزائر، و15.000 فارس من قبائل الضواحي، حوله في الدفاع عن الأرض والعرض.

وكان لتلك الهزيمة انعكاسات إيجابية على مدينة الجزائر، التي صار يطلق عليها اسم: الجزائر المحروسة. وصار ميناؤها منذ ذلك التاريخ، أقوى ميناء في الضفة الجنوبية للبحر المتوسط، وذاعت سمعتها في العالم، وحظيت باحترام أعدائها[37].

بعد ذلك، اتخذ الصراع طابعا جديدا، نتيجة تدخل الباب العالي في الحروب الكبرى، التي دارت في عرض البحر المتوسط، وتخلي الملك فيليب الثاني عن كل سياسة توسعية في شمال إفريقيا[38].

وخلال القرن 18م، استمرت الحملات الإسبانية على العاصمة الجزائر دون توقف، بالرغم من فشلها خلال القرنين السابقين. وكان الأسبان مدفوعين في ذلك، برغبة إضعاف قوّة الدولة العثمانية المنافسة لهم في أوربا الوسطى، وإبعاد خطر أسطولها عن ملاحتهم في عرض البحر المتوسط. ونذكر من أهم الحملات البحرية التي تعرضت لها مدينة الجزائر المحروسة، حملة الملك فيليب الخامس على المرسى الكبير، ووهران في الفاتح جويلية 1732، والتي تمكّن خلالها من تحقيق هدفه الاستعماري، بإعادة احتلال المدينتين من جديد. وقد أثّرت هذه الهزيمة كثيرا على باشا الأيالة محمد كور عبدي، لدرجة أنه، كما قال القنصل السويدي في الجزائر ريفيليوس: « فاعتكف في بيته، تتهشه الأفكار السوداء، ولم يطل به الأمد كذلك، حيث مات غما يوم 23 أوت، وهو في الثالثة والثمانين[39].»

كما شنّ الملك شارل الثالث، حملة ضد الجزائر في الفاتح جويلية 1770، في عهد محمد عثمان باشا، وجهّزها بعدد من السفن الشراعية ذات المجاذيف، والسفن الصغيرة التي بلغ عددها 500 مركب، وحمل على متنها 26 ألف جنديا، ومائة مدفعا. ولكن باشا الجزائر، الذي كان على علم بحيثيات الحملة، استعد للمواجهة، واستدعى قوات من البايلكات الثلاث، واستخدم زوارق بحرية خفيفة أطلق عليها اسم: الأنجور، صنعها خلال المواجهة؛ «... ودرّب عددا كبيرا من جنوده على استعمالها، ليستطيع رد الحملات التي كان يتوقع حدوثها على العاصمة[40].»

وبعد فشل هذه الحملة، اضطر البلاط الإسباني إلى طلب توقيع معاهدة صلح مع باشا الجزائر، لكنه اصطدم برفض طلبه.

ثم هناك الحملة التي جردّت منذ الفاتح جويلية 1775 ضد العاصمة الجزائر، والتي عُرفت عند الجزائريين بـــ: عام الحراش[41]. ففي ذلك التاريخ نزلت عند مصب وادي الحراش، قوات مسيحية قادمة من مدينة قشتالة الاسبانية، بقيادة القبطان الإيرلندي أوريلي، قدّرت بنحو 400 قطعة بحرية، و20 ألف جنديا[42]. ممّا شكّل خطرا حقيقيا على العاصمة. فأعلن باشا الإيالة النفير العام، وطلب من البايات الثلاث القدوم بقواتهم إلى العاصمة، لحمايتها. فقدِم صالح باي من قسنطينة على رأس 15 ألف جندي، وجلب مصطفى الوزناجي باي التيطري 10 آلاف جنديا. بينما أرسل إبراهيم باي الغرب، الخليفة محمد على رأس 10 آلاف مجاهد، بينما ظل هو في معسكر مع قسم من قواته لمنع أي هجوم محتمل من القوات الإسبانية على وهران.

وقد ساعد تباطؤ تحركات القائد أورلي، واضطراب قواته عند اشتباكها بالقوات الجزائرية، على إنقاذ العاصمة من الهلاك. حيث سمح ذلك لقوات البايات بالتجمع، وشن هجوم مضاد عليه، ودحر قواته الغازية عند شواطئ المدينة. كما ساعد إطلاق قطيع الإبل التي جلبها خليفة باي وهران معه ضد الجنود الغزاة على تشتيت شملهم والفرار من أرض المعركة، وركوب سفنهم، والعودة من حيث أتوا[43].

وبالرغم من أن ملك اسبانيا كرلوس الثالث، سعى حثيثا بعد هذه الهزيمة النكراء إلى عقد هدنة مع الباشا محمد عثمان، والتجأ إلى السلطان العثماني للتوسط له لدى حاكم الجزائر، إلا أنه فشل في مسعاه، بسبب اشتراط باشا الجزائر انسحابه أولا من الساحل الغربي للبلاد. فما كان منه إلا أن أعد حملة أخرى ضد بلادنا في الفاتح من أوت 1783، بالتعاون مع مملكة البرتغال، ودعم روحي من بابا الكاثوليك بيوس السادس، أسند قيادتها للأميرال أنطونيو بارثيليو، الذي تكبّد هزيمة فادحة على يد الجزائريين بقيادة الباشا محمد عثمان، حيث عاد إلى بلاده ناجيا بنفسه، وتاركا وراءه خسائر فادحة.[44]

ولكنه لم يتعظ وعاود الكرة، بأن أرسل حملة جديدة بقيادة نفس القائد في الفاتح أوت 1784، على رأس قوات صليبية متحالفة، لغزو الجزائر، تشكلت من 35 سفينة، محملة بـــ: 1250 مدفع، وعلى متنها 14.572 مقاتل. وبعد حوالي 10 أيام من الاقتتال، منيت تلك القوات بهزيمة أبشع من الأولى، وعاد الأميرال الأسباني إلى بلاده مذموما مدحورا[45].

وفي 14 جوان 1786، اضطر الملك الأسباني إلى عقد معاهدة سلم وصداقة مع باشا الجزائر محمد عثمان، وقبول جميع شروطه.[46]

ويمكن القول أن العلاقات بين إيالة الجزائر ومملكة أسبانيا، اتخذت طيلة ثلاثة قرون طابع الحرب الفعلية المتواصلة. حيث جرّدت هذه الأخيرة بين سنوات 1505 – 1783، حملات كبرى ضد الجزائر، ولم توقع بينهما إلا معاهدتان اثنتان طوال تلك المدّة[47].

المبحث الثالث: رد فعل العثمانيين في الجزائر و دورهم في حماية البلاد.

لقد كان للجزائر في العهد العثماني، و بدون منازع: « طابع الشخصية الدولية الفذّة، و الوجود الدولي البارز، والدور العالمي المشرق الواضح السمات، وممارسة المسؤوليات الدولية بمعنى الكلمة، بالإحساس العميق بهذا الدور، مثل الدول الكبرى اليوم تماما[48].»

وعرفت بعد خضوعها لحكم الأخوين عروج وخير الدين ابني يعقوب، وانضمامها طواعية إلى السلطنة العثمانية في عام 1519، « تاريخا جديدا حافلا بالانتصارات، والمغامرات، والسيطرة، والقوّة والعظمة[49].» وتحوّلت من بعد ضعف إلى قلعة من قلاع الإسلام لا تقهر، كما أجمع على ذلك العديد من الكتاب الغربيين المنصفين.

فالدولة الجزائرية الحديثة انبثقت إلى الوجود في ضوء الحوادث الجليلة، التي عرفها العالم في الفترة التاريخية الحديثة، والتي تميّزت بالصراع والتصادم بين الدول البحرية العظمى، و:«برزت إلى الوجود نتيجة لحملة صليبية استعمارية هوجاء[50].»

و قد أشار أعيان مدينة الجزائر، في الرسالة التي بعثوا بها إلى السلطان سليم الأول، إلى دور الأخوين عروج وخير الدين، في الدفاع عن بلاد الإسلام والمسلمين بالقول: « آنذاك قدم ناصر الدين وحامي المسلمين المجاهد في سبيل الله أوروج باي مع ثلة من الغزاة. فقابلناه بالعز والإكرام واستقبلناه، لأننا كنا في خوف (من عدونا) فخلّصنا بفضل الله ... وعلى الرغم من ترك بعض من جماعة أوروج القتال بقي المشار إليه يقاتل الكفّار مع جماعة قليلة، وكان قد عزم لقاءنا غير أنه وقع شهيدا في حرب تلمسان رحمه الله[51].»

وقالوا عن خير الدين: « وقد حلّ مكانه أخوه المجاهد في سبيل الله أبو التقي خير الدين وكان له خير خلف، فقد دافع عنا ولم نعرف عنه إلا العدل و الإنصاف وإتباع الشرع النبوي الشريف ... ويكرّس نفسه للجهاد لرضاء رب العالمين وإعلاء كلمة الله ... على أن محبتنا له خاصة ونحن معه ثابتون ...[52].»

وتوضّح الفقرة الأخيرة من الرسالة بجلاء، وجود شبه إجماع من أهالي المغرب الأوسط على الدخول في طاعة السلطان العثماني، ومبايعته. حيث ورد فيها: « ... ونحن وأمرينا خدّام أعتابكم العالية وأهالي إقليم بجاية والغرب والشرق خدمة مقامكم العالي ...»

استغرب بعض الكتاب الفرنسيين، من مسألة عجز المملكة الأسبانية في السيطرة على الجزائر، بالرغم من الحماس الديني المتزايد، وتفوق قواتها في العدد والعتاد على قوات الجزائر؛ وخبرة وحنكة قادة أسطولها. بينما استطاع من أسموهم " المغامرين" عروج وخير الدين؛ من دون أن تكون لهما قوات كثيرة، أو مال وفير، أو إمكانات هامة، من تحقيق ذلك بواسطة فقط جرأتهما وفهمهما للبلد[53].

و لكنهم نسوا أو تناسوا الرابط الديني المتين الذي كان يميز العلاقة بين الأتراك العثمانيين والجزائريين، والجرأة الكبيرة التي تميّز بها الأخوين المجاهدين في مواجهة العدو المشترك.

وأشارت بعض المصادر المحلية والإسلامية، وكذا الأوروبية إلى الدور الذي لعبه حكام إيالة الجزائر العثمانيين، في تخطي الصعاب، والأخطار التي تعرّضت لها البلاد، بفضل شجاعتهم، وثباتهم حين الزحف.

استجاب القائد عروج، لنجدة إخوانه في الدين، وتقدم في مطلع شهر أوت 1512، باتجاه مدينة بجاية على رأس قوّة بحرية متواضعة، وتمكّن من إلحاق الخسائر بالسفن الاسبانية الراسية في مينائها، ومحاصرة قوات العدو المتمترسة داخل حصن المدينة، من دون أن يفتحها. وبالرغم من أنه فقد أحد ذراعيه في المواجهة، إلا أنه واصل مشواره الجهادي، ولم يترك المطران خيمينيس يهنئ بحكم اسبانيا بعد وفاة الملك فرديناند، الذي عينّه وصيا على ولي عرشه شارل دوتريش. فبعد أن اتخذ عروج من مدينة الجزائر مقرا لقواته بدلا من جزيرة جربة، سعى إلى تحرير باقي السواحل الجزائرية من الاحتلال الأسباني، وقاد حملات ضد السواحل الاسبانية، وألحق بها أضرارا معتبرة. مما دفع بالمطران خيمينيس إلى تجهيز حملة بقيادة ديغو دي فيرا، لمهاجمة مدينة الجزائر في سنة 1515، ولكن الحملة فشلت والقوات هزمت، وعادت أدراجها[54].

وفي سنة 1516، شن غارات بحرية على سواحل غرناطة، وأسر العديد من المسيحيين، نقلهم أسرى إلى مدينة الجزائر. مما اضطر خيمينيس إلى تحصيل ضرائب من سكان تلك السواحل، وتسليح 20 قادسا جديدا لدعم الأسطول الأسباني. وقد صادف أن التقى هذا الأسطول بست مراكب جزائرية بالقرب من مدينة أليكانت، فـــ: « أغرق اثنان واستولى على البقية، فكتب إليه البابا ليون 10 يهنئه بهذا النصر[55].»

استغل سكان مدينة الجزائر وفاة الملك فرديناند في عام 1516، ليستنجدوا بعروج بعدما أدركوا قوته العسكرية، وشجاعته في مقاتلة النصارى، لمساعدتهم في نقض الهدنة التي وقعوها من قبل مع ملك إسبانيا ليتفادوا غزو مدينتهم، والتخلّص من الإتاوة التي كانوا مجبرين على دفعها له. فنادوا به أميرا على مدينتهم. « ... ووعده كل سكان المناطق المجاورة بالطاعة[56].»

وبعد أن استشهد خلال عام 1518، كل من إسحاق الأخ الأصغر لعروج، في قلعة بني راشد، وعروج في معركة وادي الملح، دفاعا عن تلمسان وأهلها من السيطرة الاسبانية، ومن تسلط أذنابهم من أمراء بنو زيان، بقي خير الدين بمفرده

في المنطقة، وهمّ بمغادرة الجزائر. غير أن أعيان مدينة الجزائر، ألحوا عليه في البقاء، وقيادتهم في الدفاع عن بلادهم. وبعد التداول بينه وبينهم في الأمر، نصحهم بربط مصيرهم بمصير الباب العالي، والاستعانة بقواتها المنتصرة. فاقتنعوا بالفكرة، وراسلوا السلطان سليم الأول في الأمر، ورجوا منه تعيينه حاكما عليهم. فزكّاه السلطان أميرا على الجزائر المحمية، وزوّده بحوالي 2000 جندي إنكشاري، و4000 من المتطوعين من الأستانة مدعومين بالأسلحة، وببعض العتاد الحربي، لمواجهة العدو المشترك.

سهر خير الدين في مواجهة الأسبان، على تحصين المدن الساحلية، وإنشاء القلاع لمنعهم من الاقتراب منها. فأحاط مدينة الجزائر غير المحصّنة، بأسوار عالية[57]. وأدت استماتته في الدفاع عن البلاد إلى إفشال أغلب حملات الغزاة التي جردت ضد عاصمتها. كما لعب دورا بارزا، في إنهاء الوجود العسكري الاسباني بالمدينة، عندما اقتحم حصن الصخرة، في يوم الجمعة 21 ماي 1529، وخلّص مدينة الجزائر من الشوكة التي كانت عالقة في حلقها.

فبعدما هاجمه بحرا بأسطول من 45 سفينة شراعية ذات مجاذيف، ومراكب شراعية بصاريتين، وقوارب كبيرة. وحاصره برا بالمدفعية الثقيلة، وظل يدكّ أسواره طيلة 10 أيام، حتى سوى بها الأرض. ثم أسرى حاكمه مارتين دي فرغاس، وأبرحه ضربا بالعصا حتى لقي حتفه[58]. أمر خير الدين من بقي من الأسرى نقل الحجارة إلى مدينة الجزائر وإعادة تشييد المسجد الذي هدموه واستعملوا حجارته في بناء حصن الصخرة، وأيضا في تشيد مرفأ مدينة الجزائر. وفي السنة الموالية، زوّد الإيالة بأسطول مؤلف من 60 سفينة. وبذلك هدأ من روع الأهالي من الخطر المسيحي.

قامت سياسة خير الدين في مواجهة العدو الاسباني على تمتين علاقته مع الزعماء القبليين، وسكان المدينة، وإشراكهم في التصدي للخطر الخارجي، ومحاربة أذنابه من المتعاونين معه في الداخل. حيث تحالف مع الأمير مسعود بن حمو ضد أخيه الأكبر المولى عبد الله حاكم تلمسان، والخاضع للأسبان. كما غزا تونس وطرد حاكمها المولى حسن المتحالف مع الطاغية، والمعادي للوجود العثماني. وهكذا وطّد خير الدين دعائم حكمه في المغرب الأوسط، وجعل من مدينة الجزائر، قاعدة بحرية إسلامية متقدّمة في الضفة الجنوبية للبحر المتوسط، ينطلق منها أسطوله للجهاد في البحر، والغارة على سفن المسيحيين، وأسر رجالهم ونسائهم. فأثار بذلك رعب إمارتي مالطة وصقلية التابعتين للبلاط الملكي الأسباني. مما جعلهما تستنجدان بالملك كرلوس الخامس، ودعوته إلى تشكيل قوّة مسيحية لطرد العثمانيين من تونس. فاستجاب لطلبهم، وشكل « أكبر جيش بحري

عرفته المسيحية منذ الحروب الصليبية. 400 سفينة شراعية منها 90 قادسا ملكيا خرجت في منتصف جوان من موانئ سردينيا باتجاه تونس[59] .»

وفي عام 1535، استدعى الباب العالي خير الدين لقيادة الأسطول العثماني، بعدما برهن على شجاعة منقطعة النظير في الذود عن حياض الإسلام، ونجح في إلحاق أغلب بلدان المغرب العربي بالخلافة العثمانية، وأعطى الجهاد البحري دفعا قويا بعد بنائه مرفأ الجزائر. حيث صارت السفن الأوروبية المتنقلة بين أسبانيا وأوروبا، تخشى كثيرا القراصنة الجزائريين.

استخلف خير الدين قبل تنقله إلى الأستانة، خادمه حسن آغا في حكم الإيالة[*]. فكان خير من استخلف. ومما أنجزه لما تولى السلطة، « أنشأ إحدى وثلاثين غلياطة بعد انتقال خير الدين من الجزائر. فاشتدت بذلك وطأته على أهل أصبانية [هكذا]، واحتوى على الكثير مع أجفانهم (نوع من السفن)، وعاش في أطراف سواحلهم، وفعل بهم ما كان يفعله بهم خير الدين أو أكثر. فرأى الطاغية أن يتوجه للجزائر بتلك العمارة التي أسلفنا ذكرها[60].»

تمكّن حسن آغا من التصدي للتحرش الأسباني بالجزائر، وصد حملة كرلوس الخامس، التي جرّدها ضد مدينة الجزائر، في خريف سنة 1541، بتجهيز أسطول من 516 سفينة شراعية، نقل على متنه 12.330 بحارا، و24 ألف جنديا. حيث: « جمع أهل المدينة، ونصب ديوانا عظيما جمع فيه علماء البلد، وصلحائهم ومشايخهم، وجعل يُسكِنهم ويطيب أنفسهم، ويهوّن عليهم أمر هذه العمارة، وهو مع ذلك يستشيرهم، وينظر ما يتفقون عليه من الأمر [61].»

كما ذكّرهم بوعد الله عباده المؤمنين الصابرين والمجاهدين في سبيله، بالنصر المبين والأجر العظيم، على أعدائه وأعداء الدين. وأخبرهم بأن أسطول خير الدين على وشك العودة إلى البلاد، وبالتالي سيجد الطاغية نفسه بين فكي كماش، وسيهلك لا محال بإذن الله. « وخرج في ستمائة تركي و ألفي فارس عربي، وهاجم الكفرة ليلا، فأثار هلعهم ونكّل بهم تنكيلا، فهلك منهم ثلاثة آلاف شخص[62].»

وقد رد على كتاب شارل الخامس، الذي دعاه فيه إلى الاستسلام بلا قتال، لأنه لا قدرة له على مقارعة جيشه العرمرم، أو الاعتصام من قوّة نيران مدفعيته، بثقة نفس، وتوكّل على الله، بالقول: « ... أضعف ما في البلاد البربرية من القلاع لا تقدر على أخذها، فكيف بمدينة الجزائر ... فإن في عسكر الجزاير [هكذا] ما يقابلك وسترى عاقبة أمرك ... وقد أتيت إلى هذه المدينة مرّة في عهد

عروج رايس [هكذا]، ومرّة في مدّة أخيه خير الدين باشه [هكذا]، وقد سوّد الله وجوهكم في المرتين، وهذه المرّة كذلك إن شاء الله[63].»

وبالفعل فشلت الحملة، وتكبد الغزاة هزيمة نكراء، انتشر خبرها في كافة أنحاء العالم الإسلامي، وذاع معها صيت مدينة الجزائر كقوّة إسلامية جديدة في حوض الغربي للمتوسط. وقد علّق أحد الكتاب الفرنسيين عن هذه الهزيمة بالقول: « كان لفشل الحملة الاسبانية (على الجزائر) بقيادة شارل الخامس، نتائج وخيمة خيّمت بظلالها على كامل أوروبا طيلة ثلاثة قرون[64].»

شجع الانتصار الجزائري على الطاغية الأسباني، حاكم تلمسان المولى محمد، على التخلي عن موالاته للكفار، وانضمامه إلى العثمانيين، وتسليمهم حصن المشور، ليجعلوا فيه قوة عسكرية تدافع عن المدينة. غير أن الحاكم الأسباني في وهران، ألكوديت، أسرع إلى مساندة تمرد المولى عبد الله أخ الأمير الأصغر، بأن أجلسه على عرش تلمسان، في 6 فيفري 1543.

وعندما تولى حسن باشا ابن خير الدين، حكم الإيالة (1544–1552)، ركّز جهوده ضد التواجد الاسباني في غرب البلاد، وتصدى لزحف السلطان السعدي محمد المهدي على تلمسان، ومستغانم، وحوض الشلف. حيث طرده وقواته من عاصمة الزيانيين في عام 1551، واسترد منه مستغانم. بينما قضى القائد حسن قورصو المدعوم بقبائل المنطقة على معظم الجيوش المغربية، وطارد الناجحين منهم إلى غاية وادي ملوية.

ولما خلف صالح رايس، حسن باشا في حكم الجزائر عام 1552، استعان بأمراء سلطنة بني عباس بشرق البلاد، في إخضاع واحات توقرت، وورجلان – ورقلة الحالية – وإجبارها على دفع ضريبة سنوية محدّدة للإيالة. كما استعان بفرسان إمارة كوكو لدحر الغزو المغربي لغرب البلاد. وفي عام 1555، حرّر بجاية، وبونة – عنابة – نهائيا من الاحتلال الاسباني، وضمهما إلى الجزائر. وفي سنة 1556، قاد أسطولا مؤلفا من 30 سفينة شراعية حربية من نوع غليوطة، لتحرير وهران. فشدّد عليها الحصار، ودكّ قلاعها، وكاد أن يلحق بالمحتل هزيمة نكراء، لولا أن أمره السلطان العثماني، بالتخلي عن مشروع تحرير وهران، وإرسال الأسطول إلى الأستانة لمواجهة أعداء السلطنة[65].

وخلال سنوات 1558 – 1562، قاد يحي رايس، أحد قادة صالح رايس الكبار، عدّة حملات ضد السواحل الأسبانية. أما وهران فظلت تحت نير الاحتلال، « ليس بفضل بسالة الأسبان، ولكن بسبب وفاة صالح رايس، واستدعاء (الباب العالي) للقوادس الجزائرية للدفاع عن البوسفور[66].»

وفي عهدته الثانية في حكم الجزائر: (1557– 1567)، ألحق حسن باشا ابن خير الدين، هزيمة نكراء بحاكم وهران ألكوديت في عام 1558، في مستغانم، وقتل قائد حامية المدينة مع 10 ألاف جندي إسباني. وقد استعان بحاكم تلمسان القلج علي(*)، في محاصرة الجناح الأيمن لأعدائه، ومنع وصول المؤونة إليهم. وتمكّن في أحد الاشتباكات من قتل حاكم وهران، وإلحاق هزيمة نكراء بجنوده، ولكن من دون أن يتمكن من اقتحام المدينة المحصّنة. ولذلك فرض عليها وعلى المرسى الكبير حصار خانق، حال دون اتصالهما بحلفائهما من القبائل العميلة في الداخل[67].

في جانفي 1563، قاد حسن باشا قوّة بحرية من 32 غليوطة لمحاصرة وهران، والمرسى الكبير. ففرض على هذا الأخير، حصارا دام 22 يوما، ودكّ أسوار حصن سان سلفادور، الذي بناه فيه الأسبان في مطلع القرن 16 م، وحوّله إلى أثر بعد عين[68]. كما حقق انتصارا ظاهرا في معركة جزر القلب، قرب مدينة أشبيليا، خلّص سواحل المغرب الإسلامي من تهديدات الأساطيل المسيحية[69].

حقق حسن باشا، إلى جانب انجازاته العسكرية، انجازات مدنية، تجسّدت أساسا في وضع تنظيم إداري للجزائر، ظل قائما إلى غاية دخول الاستعمار الفرنسي. فبعد أن حرّر مدينتي مستغانم، غليزان، وحاصر الأسبان في وهران، قرّر منع أعداء الإسلام من التوسّع صوب المناطق الداخلية، وإقامة التحالفات مع القبائل العميلة لهم في المنطقة، من خلال إقامة سلطة سياسية قوية، تكون قادرة على مقاومتهم بنفسها. فارتأى أن يجمع في يد شخص واحد السلطات التي كانت مستقلة عن بعضها البعض، وكان يتقاسمها حكام مختلف الحواضر[70].

وفي عام 1563، أسّس نظام البايلكات. حيث أقامه أولا في في مقاطعة وهران، واختار مازونة، المدينة الصغيرة الواقعة بين مستغانم وتنس، عاصمة لبايلك الغرب. ثم عمّم بعد ذلك هذا النظام الإداري، على مقاطعتي قسنطينة، والمدية. كما استعان في إدارة شؤون البلاد، نظرا لكِبر مساحتها، وقلّة عدد العثمانيين الأتراك فيها، ببعض القبائل الجزائرية المتحالفة معهم. فجعل من أبنائها الخلفاء، والقياد، والمشايخ. فأسّس بذلك نظام المخزن، الذي استمر في العمل في الجزائر طيلة فترة الحكم العثماني[71].

ونظرا لخبرته الحربية، وحنكته القيادة، استدعاه السلطان في عام 1656، للمشاركة في حصار مالطا. فشارك بنحو 28 سفينة من الأسطول الجزائري، وترك بقية القطع للدفاع عن البلاد. ولما أسندت له في مطلع عام 1567، قيادة الأسطول العثماني، خلفه صالح رايس في إدارة شؤون الإيالة.

تميّز عهد حكم صالح رايس في الجزائر، بإنهاء السلطة الزيانية في تلمسان، لعجزها عن الحفاظ على ملكها وضمان استمرارها. خاصة بعدما علم بربط المولى حسن، آخر أمراء بني زيان، اتصالات مع القائد الأسباني ألكوديت في وهرن. فاتخذ من هذا السبب ذريعة كافية لعزله، وطرده من المدينة. ثم ألحق تلمسان بشكل نهائي بإيالة الجزائر، وحماها من إطماع ملوك المغرب الأقصى، « وأقسم ألا يرتاح حتى يحرّر بجاية، ووهرن من الأسبان، وطرد آخر مسيحي من الساحل (الجزائري)[72].»

وبالفعل، برّأ صالح رايس، قسمه بأن حرّر بجاية في 1555، وأجبر قائد الحامية الأسبانية فيها ألفونس ودي بيرالتي، على تسليم الحصون، والجلاء عن بجاية مع 20 جندي ممّن يختارهم. فرحل غير مأسوف عليه.

توفي صالح رايس، قبل تحرير وهران، بوباء الطاعون. فخلفه القلج علي في حكم الإيالة في مارس 1568. واصل الباشا الجديد، الهجمات على المحتل الأسباني في وهران، وقد: « كان متحمسا لهزم إسبانيا، و إذلال المسيحية في البر والبحر، وتوحيد كل ممالك شمال إفريقيا في إمبراطورية إسلامية شاسعة[73].»

أحاط القلج علي، الباب العالي علما بخطورة تلك المخططات على النفوذ العثماني في الضفة الغربية للمتوسط، ونصح بضرورة السيطرة على تونس لمنع أي نفوذ أسباني في المنطقة[*]. وقد برزت شجاعته في المعركة ليبنت، التي جرت في 7 أكتوبر 1571، بين الأسطول الإسلامي العثماني، والأسطول المسيحي الأسباني. حيث شارك فيها بقطع من الأسطول الجزائري، ودافع فيها باستماتة عن الجناح الأيمن لجيش المسلمين. وكان القائد المسلم الوحيد، الذي أنقذ سفنه من الدمار، الذي لحق بالأسطول العثماني. الأمر الذي جعل السلطان يختاره، لقيادة قواه البحرية مع احتفاظه بمنصب أمير أمراء الجزائر[74].

فأعاد بناء الأسطول، وأرجع للدولة العثمانية مكانتها الإقليمية في فترة قصيرة من الزمن. حيث استعادت تونس في عام 1574، وأجبرت أسبانيا على توقيع هدنة معها في عام 1580[75].

قامت السياسة العثمانية في حماية الجزائر وتقوية شوكتها، خلال فترة الصراع مع الأسبان، في النصف الثاني من القرن 16م، على محاور عدّة أهمها: خلق وحدة إدارية جديدة في البلاد؛ ضرب كل من يتعاون مع الزعماء المحليين مع العدو الصليبي الأسباني؛ توسيع حدود الإيالة باتجاه الغرب، والجنوب؛ التحالف مع بعض القبائل الجزائرية القويّة، ومع شيوخ الطرق الصوفية. الأمر

الذي دفع بالملك فيليب إلى تكتيل جهود الأوروبيين بالرغم من خلافاتهم، ضد خطر تزايد تأثير الجزائر في منطقة البحر المتوسط، وضرب قوّتها البحرية الصاعدة، وتقويض هياكلها العسكرية، والإدارية[76].

واستمر الصراع والتنافس بين إيالة الجزائر، والمملكة الأسبانية على الحوض الغربي المتوسط طيلة القرن 17م. وكانت الغلبة فيه للجزائريين الذين نقلو نشاطهم الجهادي إلى أراضي أسبانيا ذاتها. وألحقوا أضرارا كبيرة بالعديد من أماكنها. وقد كان البلاط الملكي بقيادة فيليب الثالث، مشغولا آنذاك بحروب الانفصال مع الهولنديون من جهة، وحروب الزعامة مع الفرنسيين من جهة أخرى. فقد أشار حاكم حصن فرنسا في القالة سنصون نابولون إلى بعض المناطق الأسبانية التي دمّرها الأسطول الجزائري، واستولى فيها على غنائم معتبرة، وأخذ منها مئات الأسرى[77].

كان أول نشاط جهادي جزائري يسجل في بداية القرن 17م، هو تدمير الريس سليمان في عام 1613، جزيرة سانت ماري في المحيط الأطلسي. كما أشار سنصون إلى أن الجزائريين استولوا خلال الفترة بين 1613–1621، على عدّة سفن أوروبية ساقوها إلى ميناء الجزائر، قدّر عددها بنحو 936 سفينة. منها أكثر من 120 سفينة إسبانية، بين سفينة شراعية من نوع كارافيل، وسفينة دائرية. هذا بالإضافة إلى استيلائهم على عدد كبير من القوارب في السواحل الأسبانية[78]. وتخريبهم العديد من الحصون التابعة للملك[79].

تميّز التصدي الجزائري – العثماني للخطر الأسباني، في هذه الفترة، بتطوير القوّة البحرية الجزائرية بشكل ملحوظ، من خلال استخدام نوع جديد من السفن الحربية هي السفن الدائرية، التي شرع في استخدامها ابتداء من عام 1606. حيث صار بإمكان الأسطول الجزائري الإبحار في أعالي البحار، وبلوغ الطرق البحرية المؤدية إلى الهند، وأمريكا بحثا عن الغنائم. وكذا بلوغ شواطئ أيسلندا في أقصى شمال المحيط الأطلسي، والتي هاجمها مراد رايس سنة 1616، وعاد منها بأربعمائة أسير. كما هاجم السواحل الانجليزية، في عام 1631[80]. حيث أغلق الجزائريون منفذ بحر المانش، وأسروا بعض سكان بحر الشمال[81]. وبذلك شكلت البحرية الجزائرية بحق، خطرا محدقا بتجارة القوى الأوربية مع أسيا، والعالم الجديد.

وخلال القرن 18 م، أستغل حكام الجزائر المشاكل الداخلية، التي عصفت بالبلاط الملكي الأسباني في عهد فيليب الخامس، ليستردوا منهم مدينة وهران. حيث قام باشا الجزائر محمد بكداش في عام 1707، بالهجوم على المدينة، بعدما

أدرك أن حاكمها الأسباني بات معزولا، وأن حكومته الغارقة في حروب وراثة الملك، لن تنجده. فدعا إلى الجهاد في سبيل الله، وأشرك معه في الأمر مصطفى بوشلاغم، باي الغرب، الذي نقل مقر عاصمته من مازونة إلى معسكر، حتى يكون قريبا من وهران ويشدد الحصار على محتليها.

تمكّن الجيش الجزائري بقيادة أوزون حسان، من افتكاك حصن سانت كروز، وبقية الحصون في ضواحي وهران من المحتلين الأسبان. وفي 20 جانفي 1708، دخلت القوات الجزائرية منتصرة إلى ساحة المدينة. بينما فرّ قائد الحامية دون كرلوس كارافا إلى المرسى الكبير، وقفل راجعا إلى بلاده مع السكان المدنيين، وبقية عناصر الحامية. وفي نهاية العام، استرجع الباي مصطفى بوشلاغم المرسى الكبير.

اتخذ الباي بوشلاغم من وهران مقرا لحكمه بدلا من معسكر، وظل بها إلى غاية أن استولى عليها الأسبان مجددا مع المرسى الكبير، في الفاتح من جويلية 1732[82].

وتجدر الإشارة هنا إلى الدور الفعّال الذي قامت به قبائل الغرب الجزائري المتحالفة مع العثمانيين، في تحرير وهران الأول، والانتصار في ماي 1733، على قوات الحاكم العام الجديد لحامية وهران: المركيز دي فيداريس. إذ باغتتها الجزائريون خارج أسوار المدينة، وانقضوا عليها انقضاض الأسد على الطريدة. فقتلوا منها حسب المصادر الأوربية 800 جنديا[83].

لم يترك الجزائريون المحتلين الأسبان يهنؤون باحتلال وهران والمرسى الكبير، وجعلوهم يعانون كثيرا: « ... من تهديدات كل الأهالي الذين كانوا من قبل حلفاء للأسبان، ومن الحصار المتكرّر الذي جعل من هاتين المدينتين سجنين حقيقيين، ومن ضرورة تموين القوات والسكان المدنيين بمؤن مجلوبة من أسبانيا[84].»

ففي عام 1733، رفع حاكم وهران الجديد دون خوزي فاليخو، بعد تفقده تحصينات المدينة، تقريرا إلى حكومته اقترح فيه التخلي عن وهران، والمرسى الكبير، لعدم جدوى احتلالهما. وخلال هجوم شارل الثالث على العاصمة الجزائر، في الفاتح جويلية 1770، أستطاع الباشا محمد عثمان، كما مر معنا، إفشال مخططاته، ورد كيده في نحره، وحماية الجزائر من أخطار كانت تهدد وجودها[85].

أشارت إحدى الوثائق الرسمية العثمانية المترجمة[86]، إلى أن أعداء الإسلام ضنوا بأن الوضع بات ضعيفا في أوساط الجزائريين نتيجة ندرة الجنود

الإنكشاريين في تلك الفترة، وصعوبة إرسالهم إلى الجزائر، لكنهم نسوا كما قال صاحب الوثيقة، أن اعتماد المسلمين يكون أولا على الله، الذي وعد في كتابه العزيز بنصرة عباده المجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الحق والدين. حيث لم تفزعهم كثرة عدوهم وهبوا إلى الدفاع عن أرضهم، وعرضهم بما توفر لديهم من إمكانيات. كما أشار إلى روح التعاون، التي كانت قائمة بين الحكام العثمانيين، والقبائل الجزائرية، التي قدِمت من البايلكات الثلاثة للدفاع عن مدينة الجزائر المحروسة. فذلك هو سر النجاح في تحقيق الانتصار على الغزاة الأسبان المتفوقين في العدد والعتاد.

ولما تماطل البلاط الأسباني، بعد معاهدة 14 جوان 1786، في الانسحاب من المرسى الكبير ووهران، أمر الباشا محمد عثمان، باي الغرب محمد بن عصمان، المشهور بمحمد الكبير، بطردهم من المدينتين. فحاصرهم في وهران، في 21 أكتوبر 1790، وشنّ على أسوارها، وحصونها هجوما كاسحا بفضل شجاعة وجسارة أبناء قبيلة بني زروال المتحالفة معه. حيث تمكنوا بعد تضحيات كبيرة، من افتكاك حصن العين من أيدي العدو، والذي صار منذ ذلك التاريخ يعرف باسم: برج بني زروال[87].

وفي 12 ديسمبر 1791، حل بمدينة الجزائر، وفدا أسبانيا للتفاوض مع الباشا بابا حسن، حول الصلح بضمان الخروج من وهران. وتم التوقيع على معاهدة في نفس التاريخ بشروط جزائرية(*). وبعد أربعة أيام من زيارة الوفد، شُرع في إجلاء القوات الأسبانية عن وهران والمرسى الكبير، وانتُهى منه في مارس 1792[88].

وبذلك، انتهت حرب الثلاث مائة سنة، بين الجزائر وإسبانيا، وانتصرت فيها الدولة الجزائرية الحديثة، ودانت لها السيطرة على الضفة الغربية للبحر المتوسط، والتحكم في حركة الملاحة فيها، وفرض إتاوات على القوى الأوروبية للسماح لسفنها بالعبور فيها بسلام. وكل ذلك تم بتوفيق من الله، وبفضل تعاون أهلها مع إخوانهم العثمانيين الأتراك في صد الأخطار الصليبية، وشجاعة بحاريها الأشاوس، الذين لم يقتصر دورهم على الدفاع عن الجزائر، وحماية سواحلها، وكسر شوكة القراصنة الأوروبيين وحسب، بل تعداه إلى الدفاع عن السلم والأمن الدوليين[89]، من خلال وقوفهم إلى جانب الأسطول العثماني في مواجهة أطماع الدول الأوروبية الصليبية في أرض الإسلام والمسلمين(*).

خاتمة.

لقد تمكنا بعض البحث والدراسة في موضوع هذا البحث التاريخي، التوصل إلى الاستنتاجات التالية:

- شكل الاحتلال الصليبي الأسباني للمدن الساحلية الجزائرية، خطرا حقيقيا على الوجود السياسي، و لحضاري، والعقائدي لدولة بني زيان المتهالكة.
- دل استنجاد الجزائريين بالأخوين عروج وخير الدين ابني يعقوب على حنكة سياسة، وحسن تدبير لدى أعيان مدينة الجزائر، وعلمائها، ومشايخها؛ وقوّة الإحساس بالانتماء الحضاري للأمة الإسلامية.
- ساعد دخول الجزائر تحت لواء الخلافة العثمانية على تجاوز أزمة القرن 16، التي عصفت بدويلات المغرب الإسلامي. ولاسيما منها التفكك السياسي، وتلاشي نفوذ الدولة على أقاليمها في الداخل، وفشلها في التصدي للأخطار الخارجية. فزودها بكيان سياسي جديد، ومنحها توازنا عسكريا في علاقتها مع الدول الأوربية، سمح لها بمواجهة التحرش الأسباني بها، والحد من أخطاره. فضمنت لنفسها القوّة والمنعة، وتخلصت من احتلال الطاغية، وهيمنته على المنطقة.
- ساهم العثمانيون بتعاونهم مع السكان الأصليين في تحرير كل الثغور التي احتلها الأسبان، والحفاظ على استمرارية الدولة الجزائرية الفتية، التي صارت بعد مدة قصيرة، دولة مهابة الجانب، مرغوبة الصداقة. حيث صارت الدول الأوربية الصغيرة والكبيرة، تلهث وراء كسب ودها، وتتطلع إلى كسب رضاء باشواتها.
- لعبت إيالة الجزائر ضمن إطار الصراع العثماني – الأسباني، دورا كبيرا من أجل السيطرة على البحر الأبيض المتوسط، وبسط سيادتها عليه. حيث تحوّلت إلى قوّة بحرية فرضت نفسها في حوض المتوسط، وبسطت سيادتها عليه. ممّا أكسبها هيبة مهيمنة، ومكانة دولية متميّزة.
- أدى الصراع الجزائري – الأسباني، الذي امتد لحوالي 3 قرون، إلى إضعاف المملكة الأسبانية، ووضع حد لمشروعها الاستعماري التوسعي سواء في شرق أوربا أو في القارة السمراء. بينما زاد الجزائر قوّة وعنفوانا، ومكنها من جعل البحر المتوسط بحيرة إسلامية لا تمْخُر السفن الأوربية عُبابه إلا بإذن منها.
- أقامت الدولة الجزائرية الفتية في العصر الحديث، بفضل جهاد البحر توازنا بين ضفتي البحر المتوسط. وأبعدت عنها خطر التهجم المسيحي بقيادة الأسبان. كما غيّرت من إستراتجية الدول الأوربية، وحولتها من

دول طامعة في احتلال بلادنا إلى دول راغبة في كسب صداقتنا، وباحثة عن توقيع معاهدات سلم، وتجارة معنا.

- دلت المعاهدات الكثيرة التي وقعتها إيالة الجزائر مع القوى الأوربية على البعد الإسلامي عند حكامها في تعاملهم مع الصليبيين. حيث كانوا دوما يضعون نصب أعينهم أن العزّة لله، وللرسول، وللمؤمنين.

الهوامش.

[1] BIGUET FAURE, Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination musulmane, Paris, Henri Charles-Lavauzelle, éditeur, France, 1905, p.245.

[2] ESTERHAZY WALSIN, De la domination Turque dans l'ancienne régence d'Alger, Paris, librairie de charles Gosselin, 1840, p. 130.

[3] خليل ساحلي أوغلي، من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني. بحوث ووثائق وقوانين، اسطنبول، منظمة المؤتمر الإسلامي، إرسيكا، 2000، ص.319.

[4] dournon. a, kitàb tarik qocantina, par el-hadj ahmed el mobarek, r.a, vol. 57, annee 1913, pp. 285-286.

[5] BARGES J. L, Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom, sa topographie, son histoire, Paris, Duprat, 1859, p. 199.

[6] CORNEVIN Robert, Histoire de l'Afrique, tome 2, Paris, Payot, 1966, p. 405.

[7] مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية، وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، الجزء الأول، ط.1، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، 1985، ص. 61.

[8] سعيدوني ناصر الدين، الأحوال الصحية والوضع الديمغرافي بالجزائر أثناء العهد التركي، مجلة الثقافة، السنة 16، العدد 92، جمادى الثانية- رجب 1406ه / مارس- ابريل 1986، ص. 101.

[9] BRAUDEL F., Les espagnols et l'Afrique du nord de 1492 à1577, R.A, vol. 69, année 1928, p.215.

(*) بالرغم من أن معاهدة استسلام غرناطة نصت على أنه يمكن للمسلمين ممارسة شعائر دينهم بكل حرية، إلا أن المطران المتعصب فرنسيسكو خيمنيس، الذي صار وزيرا أولا لملوك أسبانيا، مزّقها في سنة 1501، وأقام محاكم التفتيش على إثر ثورات المسلمين الأندلسيين في مملكة غرناطة، نتيجة المعاملات السخيفة التي أقرتها الكنيسة الأسبانية، بقيادته. حيث اشترط على الأندلسيين المسلمين اعتناق المسيحية وإلا تعرضوا للعبودية. مما اضطرهم إلى الهجرة من بلادهم والنجاة بدينهم إلى بلادهم والنجاة بدينهم إلى بلاد المغرب القريبة. كما أصدر في السنة الموالية 1502، منشورا أمر بموجبه كل الذين لم يعتمدوا وينتصروا، والبالغين سن أقل من 14 سنة مغادرة البلاد في ظرف شهرين. وأمام الرفض الجماعي لمسلمي المدن الأندلسية لاعتناق المسيحية، وإعلان الثورة، أصدرت الكنيسة قانون طرد المورسكيين في فبراير عام 1502. أنظر للمزيد من المعلومات عن محنة الأندلسيين: أحمد بن محمد مقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.

[10] التميمي عبد الجليل، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519، المجلة التاريخية المغاربية، عدد 5، تونس، جانفي 1976، ص. 119-120.

[11] التميمي عبد الجليل، رؤية منهجية لدراسة العلاقة العثمانية – المغربية في القرن 16م، المجلة التاريخية المغاربية، عدد 29-30، تونس، جويلية 1983، ص. 73.

[12] BERBRUGGER Adrien, Reprise d'Oran par les espagnols, en 1732, R.A, vol. 8, année 1864, p. 13.

[13] ج. س. كولان، الأندلس، تر إبراهيم زكي خورشيد وآخرون، ط.1، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1980، ص. 139.

[14] ديدبي، المرجع السابق، ص. 142.

[15] CLAVIERE Savigne, Nouveau précis de l'histoire d'Espagne depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours, Paris, Lavigne-Libraire, s.d., p. 142.

(*) جاء في نص تلك الوصية: « أدعو ابنتي الأميرة والأمير زوجي، إلى أن يكون لديهما كأميرين كاثوليكيين انشغل كبير بالمسائل التي تتعلق بالرب وبالعقيدة المقدسة، وأن ينشغلا بلا انقطاع بغزو إفريقيا والقتال ضد الكفار [المسلمين] من أجل الدين [المسيحي].» ورد في: ديدبي، المرجع السابق، ص. 2.

[16] كورنوفين، المرجع السابق، ص. 406.

[17] كلافيير، المرجع السابق، ص. 140.

[18] بروديل، المرجع السابق، ص. 202.

(*) تذكر بعض المراجع الأجنبية أن البلاط الملكي الأسباني أرسل في عهد إيزابيل، شخصا يدعى " لورينثو دي باديليا Lorenzo de Padilla" كجاسوس في زي تاجر تلمساني لجمع المعلومات الضرورية لتجريد حملة ضد المرسى الكبير. فاندس في صفوف الأندلسيين الفارين بعد سقوط غرناطة وأقام بتلمسان مدة سنة كاملة، وبناء على معلوماته تم احتلال المرسى الكبير. أنظر:

MAXANGE Defontin, Alger avant la conquête. EUDJ ALI, Paris, A. Pedone, éditeur, 1930, p. 4.

[19] BEREBRUGGER Adrien, Le Pégnon d'Alger ou les origines du gouvernement turc en Algérie, Alger, Challamel, libraire, février 1860, p. 6.

[20] RUFF Paul, La domination espagnole à Oran sous le comte d'Alcaudète, Paris, 1900, p. 10.

[21] CAT Édouard Charles, Mission bibliographique en Espagne, Paris, Leroux, 1891, p.9.

[22] بربروجر، إعادة احتلال وهران، المرجع السابق، ص. 14-16.

[23] بروديل، المرجع السابق، ص. 203.

[24] بربروجر، المرجع السابق، ص. 20.

[25] بروديل، المرجع السابق، ص. 200 - 201.

[26] استرهازي، المرجع السابق، ص. 115.

[27] بيقي، المرجع السابق، ص. 247.

[28] GODARD Léon, Souvenirs de l'expédition de Ximenes, R.A., n° 25, vol. 5, année 1861, p. 56.

[29] نايت قاسم، المرجع السابق، ص. 129.

[30] إسترهازي، المرجع السابق، ص. 117.

[31] أنظر للمزيد من المعلومات حول التحرير الأول والثاني لوهران، المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، 1492-1792، وثائق ودراسات.

[32] أنظر للمزيد من المعلومات، حول أسباب اختيار أهل مدينة الجزائر الاستسلام للغازي من دون مقاومة، ما ورد في رسالتهم إلى السلطان سليم الأول، التميمي، أول رسالة ..، المرجع السابق، ص. 120.

[33] بيقي، المرجع السابق، ص. 246.

[34] نايت بلقاسم، المرجع السابق، ص. 135.

[35] DURAND DE VILLEGAIGNON Nicolas, Relation de l'expédition de Charles-Quint contre Alger, trad. par Martine VERMANDE, Juillet-Saint-Lager libraire, Alger, 1874, p. 64.

[36] Alexandre Rang, Histoire d'Aroudj et de Khaïr-ed-din, fondateurs de la régence d'Alger : chronique arabe duXVIe siècle, vol. 2, J. Angé et cie, 1837, p. 67.

[37] ألكسندر رانغ، المرجع السابق، ص. 69.

[38] بروديل، المرجع السابق، ص. 191 - 192.

[39] أورده نايت بلقاسم، المرجع السابق، ص. 152.

[40] بونار رابح وجلول أحمد البدوي، الجزائر والغزو الإسباني الفاشل، مجلة الثقافة، السنة 2، العدد 10، رجب 1392هـ/ سبتمبر 1972، ش. و. ن. ت، الجزائر، ص. 27.

[41] ESTERHAZY WALSIN, Notice historique sur le Maghzen d'Oran, Oran, typographie de Perrier, 1849, p. 184-185.

[42] BERBRUGGER A., Expédition du Comte O'Reilly contre Alger en 1775, R. A., vol. 9, année 1865, p. 95.

[43] أنظر تقرير القائد دون ديغو دي برياس، عن الحملة، والذي رفعه إلى ملكه في 27 أوت 1775. أورده بربروجر، المرجع السابق.

44 أورده نايت بلقاسم، المرجع السابق، ص 152.

45 بونار، المرجع السباق، ص 30-35.

46 المرجع نفسه ، ص 169.

47 المرجع نفسه ، ص 126.

48 المرجع نفسه ، ص 50.

49 حمادي عبد الله، جزائر القرن السادس عشر من خلال وثائق بعض الأسرى الأسبان، مجلة المصادر، العدد 6، محرم 1423 هـ/ مارس 2002، المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، ص 256.

50 المدني المرجع السابق، ص. 2.

51 التميمي ، المرجع السابق ، ص 119.

52 المرجع نفسه، ص 120.

[53] إسترهازي، المرجع السابق، ص. XIX.

54 ESPRIT Fléchier, Histoire du cardinal Ximenes, tome Second, Amsterdam, Henry Desbordes Marchand, Libraire 1693, p.3.

[55] المصدر نفسه، ص. 565.

56 الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف افريقيا، تر، محمد حجي، و محمد لخضر، ط2، ، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983، ص 410.

[57] إسترهازي، من الهيمنة التركية ..، المرجع السابق، ص. 133.

[58] إسترهازي، نبذة تاريخية ..، المرجع السابق، ص. 140.

[59] المرجع نفسه، ص. 142.

(*) وصف صاحب كتاب الغزوات حسن آغا بالقول: «وكان خير الدين لما سافر من الجزائر إلى اسطنبول ترك نائبا عنه كما تقدم وكان اسمه حسن اغة [هكذا] وكان رجلا عاقلا حازما سديد الرأي، جيد التدبير. وكان له حظ من العلم والصلاح، كريم النفس، سخيا بالمال باذلا للمعروف، يراعي العلماء والصلحاء، وأهل الخير مع العدل الشامل، والاهتمام بأحوال الرعية الكامل ... فصارت له بذلك محبة عظيمة في قلوب أهل البلد.» ورد في: مجلة الثقافة، السنة 03، العدد 14، ربيع 1-2 1393 هـ/ أبريل- ماي 1973، ش. و. ن. ت، الجزائر.

60 المرجع نفسه ، ص 71.

61 المرجع نفسه ، ص 71.

62 المرجع نفسه ، ص69.

63 المرجع نفسه ، ص73.

[64] إسترهازي، المرجع السابق، ص. 149.

[65] DEVOULX Albert, La marine de la régence d'Alger, R.A., 13ème année, n° 77, septembre 1869, p. 8.

[66] كورنفين، المرجع السابق، ص. 412.

(*) القلج كلمة دراجة في العامية الجزائرية ، محرفة من كلمة كلج العصمنلية، وتعني السيف. وقد أطلاقها عليه السلطان سليم الثاني بدلا من اسم العلج، الذي كان يحمله. أنظر، المدني، المرجع السابق، ص. 391.

[67] بروديل، المرجع السابق، ص. 352 - 353.

[68] المرجع نفسه، ص. 338.

[69] ماكسونج، المرجع السابق، ص. 112.

[70] إسترهازي، المرجع السابق، ص. 161.

[71] المرجع نفسه، ص. 162.

[72] المرجع نفسه، ص. 151 - 153.

[73] ماكسونج، المرجع السابق، ص. 113.

(*) في أكتوبر 1965، جهّز علي باشا جيشا جزائريا مؤلفا من 5000 جندي إنكشاري، و6000 محارب من قبيلة زواوة، وتوجه به لاحتلال تونس. بينما جهّز الأمير الحفصي أحمد باشا جيشا مؤلفا من 30 ألف مقاتل. وعندما التقى الجيشان في أول اشتباك في منطقة باجه، انظم أغلب الجنود التونسيين إلى الجيش الجزائري. مما دفع بالأمير أحمد إلى الاتجاه إلى الحامية الإسبانية في حلق الوادي. كما نصر القلج على أهل تونس، بعدما ناشده رؤساء قبائلها مساعدتهم في التخلص من تبعية وخضوع حاكمهم للطاغية الإسباني. حيث ضمها إلى الجزائر، وخلّص أهلها من التفكك الإداري، والتدخل الإسباني. أنظر التميمي، المرجع نفسه، ص. 91-93.

[74] قارن بين كل من: كورنفين، المرجع السابق، ص. 413، وديفول، المرجع السابق، ص. 9.

[75] LAPEYRE, H., L es monarchies européennes du XVI siècle, Paris, P.U.F, 1937, p. 2015.

[76] التميمي عبد الجليل، رؤية منهجية لدراسة العلاقة العثمانية – المغربية في القرن 16 م، المجلة التاريخية المغربية، السنة العاشرة، 29-30، جويلية 1983، ص. 81.

[77] Ministère de la guerre, Tableau de la situation des établissements français en Algérie en 1841, Imprimerie royale, Paris, 1842, p. 420.

[78] بروديل، المرجع السابق، ص. 137.

[79] DE GRAMMONT Henri-Delmas, Relations entre la France et la Régence d'Alger au 17ème siècle. La Mission de Sanson Napollon (1628-1633), R. A., n°134, vol. 23e, année1879, p. 137.

[80] ديفول، المرجع السابق، ص. 10.

[81] نايت بلقاسم، المرجع السابق، ص.73.

[82] بروديل، المرجع السابق، ص. 352 - 352.

[83] المرجع نفسه، ص. 336.

[84] CASENAV J، Contribution à l'histoire du vieil Oran، R. A.، vol. 66، année 1925، p. 328.

[85] بونار، المرجع السابق، ص. 27.

86 DEVOULX A., Expédition d'Oreilly d'après un document Turc, R. A., vol. 3, année 1858, p. 437.

87 بروديل المرجع السابق، ص. 337.

(*) كان من بين تلك الشروط التزام إسبانيا بدفع ضريبة سنوية للجزائر تبلغ 120 ألف دنيه، إلى جانب تقديم الهدايا في شكل أسلحة، وسفن، وعتاد بحري كما أشترط على الملك دون كارلوس « حمل مفتاحين من ذهب لمدينة وهران، وجرتين من ماء عيونها إلى اسطنبول، وتقديمها للخليفة العثماني.» أنظر، نايت بالقاسم، المرجع السابق، ص. 177.

88 كورنفين، المرجع السابق، ص. 419.

89 نايت بالقاسم، المرجع السابق، ص. 74.

(*) لقد شارك الأسطول الجزائري إلى جانب أسطول الدولة العثمانية في أربعة معارك كبرى هي: حصار مالطا في عام 1565؛ ومعركة ليبانت التي دارت خلال عام 1571؛ وفي الحرب الروسية ـ العثمانية في عام 1787؛ وأخيرا في معركة نفارين خلال عام 1827.